الجزائر في عيون الرحّالة الجزائريين خلال القرن التاسع عشر "الرحالة المشرفي أنموذجًا"

د. عبد الحق شرف

أستاذ محاضر في التاريخ والحضارة الإسلامية
قسم العلوم الإنسانية – جامعة ابن خلدون
تيارت – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الحق شرف، الجزائر في عيون الرحّالة الجزائريين خلال القرن التاسع عشر: الرحالة المشرفي أنموذجًا.- دورية كان التاريخية.- العدد العشرون؛ يونيو ٢٠١٣. ص ٢٥– ٣٠.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

ظلت الكتابات التاريخية حول الجزائر وأقاليمها ومدنها خلال القرن التاسع عشر، حكرًا على كتابات وتقارير الضباط الفرنسيين، الذين رافقوا الحملة الفرنسية في الجزائر، أو الذين تقلدوا مناصب مهمة فيها بعد نجاح هذه الحملة. ولم يتسنى للكتابات الجزائرية البروز في ظل هذا الاكتساح الكبير للكتابات الفرنسية، حيث بقيت على قلّتها أو قُلْ ندرتها، دفينة رفوف خزائن المخطوطات العامة والخاصة وقتها. ومن بين الكتابات الجزائرية التي نُسجت على منوال الرحلات، مخطوط عظيم الشأن، جليل القدر تحت عنوان "ذخيرة الأواخر والأول فيما ينتظم من أخبار الدول" للعالم الجزائري العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي المعسكري الجزائري دفين مدينة فاس. وقد قدّم لنا المشرفي من خلال هذه الرحلة وصفًا مهمًا دقيقًا لمدن وأقاليم الجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك بعد زيارته إلى الجزائر سنة ١٨٧٧. ورغم أهمية هذه الرحلة فإنها ظلت لسنوات طوال، مقبورة داخل دور المخطوطات، ولم تنل حقها من الدراسة أو التعريف.

مُقَدِّمَةْ

تعدّ الرحلة كتابة ملتبسة، وهي سفر واقعي أو متخيل يسمح بالسفر عبر المكان، والأجناس والأنساق والكلمات، حوارًا وتحليلاً وتفسيرًا. ولا شك أن هذه الوظيفة التي يمتلكها هذا المكون المركزي- مكون السفر- تقتضي وجوده وانتشاره عبر مراحل الرحلة ذهابًا وإيابًا، مما يسمح باستيعاب مختلف المكونات الأخرى وإدماجها في سياق البنية المهيمنة بنيّة السفر والارتحال. وعلى هذا المنوال نسجّل واحدة من الرحلات المهمة لرحّالة جزائري في القرن التاسع عشر، دوّن لنا مشاهداته عن الجزائر وأقاليمها، وهو العَرْبي المشرفي المعسكري دفين مدينة فاس، في رحلته الموسومة بـ"ذخيرة الأواخر والأُول" والتي يسميها بعض المؤرخين بـ "الرحلة الجزائرية".

وقد نوّه بأهمية هذه الرحلة وقيمتها التاريخية والأدبية المستعرب الفرنسي هنري بيريز "*Henri péres*". ورحلة المشرفي هذه لا تزال مخطوطة، ونظرًا لأهميتها فقد ارتأينا أن نقدمها ونعرف بها. أَنزل المشرفي رحلته على عادة المؤرخين القدامى في مقدمة، ستة أبواب وخاتمة. وما يهمنا من الرحلة الباب الخامس منها، الذي ذكر فيه معلومات مهمة جدًا عن الجزائر في الفترة الأخيرة من الحكم التركي وهي الفترة التي عايشها وعاينها عن كثب، كما أفرد حيّزًا هامًا لتاريخ الجزائر وأحوالها إبان الفترة الاستعمارية. ونقل إلينا بعض مشاهداته في وهران أيام دراسته بها عن تعسف الأتراك وظلمهم وجورهم، وفي المقابل نوّه بحبهم للعلماء. ثم تكلّم عن مدينة الجزائر وتاريخ بنائها، وعن ولها عبد الرحمن الثعالبي، وتلميذه أحمد بن عبد الله، وعرّج إلى ذكر دخول الفرنسيين إليها. كما نجده في السياق ذاته، ينوّه ببعض علماء الجزائر، ويقدم تراجم وافية لبعضهم، وينهي هذا القسم بخاتمة مطوّلة تحدث فيها عن أقاليم المغرب الأوسط البحرية والجبلية والصحراوية.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

التعريف بصاحب الرحلة

هو العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي،[١] وقد وجد التباس كبير حول تاريخ ولادته، شأنه في ذلك شأن جل أعلام هذه الفترة، وبالتالي يصعب تحديده وضبطه بدقة. وقد وجد في نهاية كتابه "الحسام"، أنه بلغ سن الخمسين عند تأليفه، وبالاعتماد على ما جاء في "إتحاف المطالع" من أنه توفي سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م عن عمر يناهز التسعين،[٢] فإننا نستطيع أن نضع احتمال ولادته مع نهاية سنة ١٨٠٤ وبداية سنة ١٨٠٥م، ومن المؤكد أن ولادته كانت بقرية الكرط ضواحي مدينة معسكر،[٣] ولم يشذ عن ذلك سوى صاحب "إتحاف المطالع"، الذي أورد أنه ولد وتعلم في تلمسان.[٤]

وينتسب العربي المشرفي إلى أسرة المشارف[٥] ذات الأصول الوثيقة بالعرهوبيين أبناء مشرِف (بكسر الراء وفتحها) بن عبد الرحمن بن مسعود. وقد تلقى تعليمه الأولي ببيت عائلته، فوالده عبد القادر بن علي المشرفي الذي اشتهر بين جماعته بغزارة العلم الشرعي وسمعته الطيبة، فضلاً عن تدينه وعدله، جعله قبلة لاحتكام الخصوم إليه. وعلى غرار أبناء بلدته، التحق المشرفي بكُتّاب بلدته الكرط لحفظ القرآن.

أما شيوخه الذين تتلمذ لهم في هذه المرحلة فهم:[٦] سيدي عبد الله بن ديدة، وقد قرأ عليه أحكام القراءة في الرسم والضبط، والدرر اللوامع في مقرئ الإمام نافع، وسيدي محمد بن عبد الرحمن، والعربي بوروبة، ومحمد بن عدلة. وبعد أن تلقى المشرفي تعليمه الأولي بمسقط رأسه الكرط، انتقل إلى مدينة معسكر ليتم مرحلة الجمع والتحصيل. وفي هذه المدينة، تلقى تعليمًا على مستوى عال، لتتلمذه على ثلة من شيوخها الأجلاء، ذكرهم في مجموعة من كتاباته وعُرّف بهم وبما أخذ عنهم، وهم كالتالي: محمد بن عبد الله سقاط المشرفي، الطيب بن عبد الرحمن، أحمد بن التهامي، مصطفى بن أحمد التهامي، محمد بوسيف العامري التراري، بن عب بن المصطفى، الطاهر المشرفي، عبد القادر بن مصطفى بن الأحمر، السنوسي بن عبد القادر.

وبعد أن أتم مسيرته الدراسية في مدينة معسكر، انتقل المشرفي إلى مدينة مستغانم ليتتلمذ على مشايخها وعلمائها، يستشف ذلك من قوله: "كما قرأنا على غيرهم من علماء مستغانم"،[٧] حيث تتلمذ لجملة من الشيوخ وهم: محمد بن صابر، محمد بن عامر البرجي، محمد بن عاشر، عبد القادر بن القندوز، خليل الفرندي. ثم انتقل المشرفي بعد ذلك إلى تلمسان، بغية الاستزادة والتتلمذ على علمائها، وقد أشار عرضًا إلى مقامه بها، وقراءته على يدي الشيخ الفقيه الحاج الداودي التلمساني، والشيخ محمد بن سعد التلمساني، وسيدي محمد الفخّار. وفي نهاية المطاف، انتقل المشرفي إلى وهران سنة ١٢٤٠هـ/ ماي ١٨٢٤م،[٨] ليواصل تعليمه بها على شيوخه الذين تتلمذ لهم بادئ الأمر في معسكر.

وقد كان للاستعمار الفرنسي الأثر السيء على حياة المشرفي العلمية، وهو ما ترك في نفسه تذمرًا كبيرًا. ذلك أنه وبعد الاحتلال قفل راجعًا إلى معسكر، بعد أن أمضى ست سنوات من التحصيل في وهران، ليتولى تدريس الصبيان، حيث عبّر عن هذه المرحلة بقوله: "ففاجأنا خروج الإفرنس دمّره الله للثغر الجزائري، فلم يتم لنا المراد في قراءة التفسير ومتون الصحاح، فرجعت لغريس ظافرًا بالنحويات والفقهيات والحمد لله، وانتصبت في حياة والدي للتدريس وقرت بي عينه".[٩]

وبعد رجوعه لمعسكر، والتخلي الاضطراري عن مزاولة الدروس، لم يضق المشرفي ذرعًا بذلك، بل نجده ينطلق في رحلة جديدة، بحثًا عن العلم والتحصيل، لينزل هذه المرة ضيفًا على منطقة مجاجة سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م، لكن خيبة أمله كانت كبيرة لما وجد بها سوى عالمين اثنين. وهكذا؛ تنتهي المرحلة الأولى من حياة المشرفي، التي عاش خلالها متنقلاً بين معسكر ومستغانم وتلمسان ووهران، إلى غاية انهزام الأمير عبد القادر في معركة عين طاقين سنة ١٨٤٣م، حيث لم يقم بها طويلاً، ويشدّ الرحال نحو المغرب في رحلة متعبة سنة ١٨٤٤. وهناك في المغرب، عاش العربي المشرفي حياة صعبة للغاية، وعرف تهميشًا كبيرًا وجفاء لا يطاق من لدن علماء عصره.

ورغم ما عُرف عنه من كثرة التآليف والارتحال، فإنه لم يستطع أن يجد لنفسه موطئ قدم في أوساط النخبة العالمة هناك، وهو ما عبّر عنه بنفسه قائلاً: "وكل هذا، أنني معدود من حزب الغرباء، وإن كنت عندهم من جملة الأدباء، وفي الطبقة الثانية من طبقات المدرسين، ومحروم من أحباس المحبسين، وهذا شأن من لفظته الأقدار من أوطانه، وانقلبت محاسني مساوئا، وأصدقائي أعاديا".[١٠] وعلى الرغم من ذلك؛ فقد كانت له علاقات طيبة مع بعض علماء عصره بحاضرة فاس، ونخص بالذكر علاقته بمحمد الفاطمي بن الحسين الحسيني الصقلي، والمهدي بن سودة، والحاج إدريس بن علي القرباوي المالكي السناني، والعباس بن أحمد الأبّار.

ترك المشرفي بعد وفاته سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م،[١١] ثلة من التلاميذ النجباء خلّدوا ذكراه، وقد كان معظمهم من عائلته، وأبرزهم: محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي،[١٢] علي بن الحاج بن موسى الجزائري (١٢٤٤ – ١٣٣٠هـ/ ١٨٢٩ – ١٩١٠م)،[١٣] عبد القادر بن البشير، أبو العباس السيد أحمد.

التعريف بالرحلة

الرحلة عبارة عن مؤلَّفٍ يُعتبر من أهم مدوّنات العربي المشرفي وأجلّها قدرًا. أتمّ تأليفه سنة ١٨٨٢م. وهو تأليف يجمع بين التاريخ والرحلة يقع في سفرين من ٣٣٣ ورقة. ويوجد بعضه بخط المؤلف بالخزانة الفاسية،[١٤] بينما توجد النسخة الثانية منه بخزان الكتاني في فاس، ونقلت إلى الخزانة العامة في الرباط.[١٥] وقد أشار إليها ابن سودة قائلاً: "وله رحلة إلى بلاد الجزائر تقع أيضًا في مجلد"،[١٦] وهي معلومة يبدو أنه استقاها من الشيخ عبد الحي

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الكتاني الذي أخبر في كتاب دليل الحج والسياحة لأحمد بن محمد الهواري، أن للمشرفي رحلة جزائرية توجد في الجزائر، ويبدو أنها نفسها ذخيرة الأواخر التي اشتهرت في الجزائر بـ "الرحلة الجزائرية" أو "رحلة الشيخ المشرفي"، وهو ما يدل عليه قول الشيخ الحفناوي: "الرحلة المسماة ذخيرة الأواخر والأول تأليف الشيخ أبي محمد سيدي العربي بن علي المشرفي الحسني في حال مروره بالجزائر سنة ١٢٩٤هـ".

وقد أشار أبو القاسم سعد الله، إلى وجود نسخة أخرى في المكتبة الوطنية الجزائرية لكن لم نعثر لها على أثر. كما ذكر في السياق ذاته أن هناك نسخة أخرى نقل عنها المستعرب الفرنسي هنري بيريز "*Henri péres*"، لكنه لم يذكر مكان تواجدها ولا ما آلت إليه.[١٧] وقد ذكر المنوني الخبير بالمخطوطات المغربية، أن هناك نسخة أخرى مبتورة الآخر بخزانة خاصة في مراكش، لكن دون أن يحدّد اسم الخزانة.[١٨]

مناسبة تأليف الرحلة

ألف المشرفي هذه الرحلة تلبية لطلب أحد أقاربه وهو تلميذه مصطفى المشرفي، حيث ورد في فاتحة الكتاب ما نصه: "فقد ورد علي مكتوب من لا تسعني مخالفته، وتتأكد علي بالقرابة إجابته، أن أضع تقييدًا قاصرًا على سيرة ملوك الأتراك... كما طلب مني ما نعلمه من سيرة ملوك الدولة العلوية، ونسبتهم الشريفة النبوية... فلبيته لما دعاه وأجبته لمسعاه، وإن كنت لست أهلا لذلك، ولا ممن يسلك أوعر المسالك، والله الموفق لرقم الجواب، والهادي إلى أقوم طريق الصواب بمنّه وفضله، وبمنّه وعدله"[١٩] "وسميته ذخيرة الأواخر والأُول فيما يتضمن من أخبار الدول، وبادرت لامتثال ما به المكتوب ورد، لينجز حر ما وعد، وهذا الباعث على تسطير هذه الرسالة، ولم أماطل في تسويد أوراق العجالة".[٢٠] وصنّف العربي المشرفي مؤلَّفه على عادة المؤرخين القدامى في مقدمة، ستة أبواب وخاتمة. وما يهمنا هنا هو الباب الخامس الذي سرد فيه أطوار المرحلة الممتدة من ظهور الإسلام إلى عصره بشيء من التوسع في ذكر تاريخ الأتراك، ثم الاحتلال الفرنسي للجزائر.

مضامين الرحلة

توزعت مواضيع الرحلة – الباب الخامس منها- على شكل مواضيع قدّم من خلالها مشاهداته عن الجزائر بعد زيارته لها، الأولى سنة ١٨٤٩ والثانية سنة ١٨٧٧ بعد أن كان مقيمًا في المغرب أرض المهجر. وقد أرّخ المشرفي في هذا الباب للفترة الممتدة من ظهور الإسلام إلى عصره، متسائلاً عن أسباب تراجع المسلمين رغم ما يتمتع به الدين الإسلامي من غنى وتميز مقارنة مع النصرانية، مستشهدًا بتعدد الزوايا والطرق وبأدبيات التصوف، وكتب الطبقات والمناقب،[٢١] كما أفرد حيّزًا هامًا لتاريخ الجزائر وأحوالها خلال الحكم التركي، وإبان الفترة الاستعمارية، وفيما يلي تحليل لمضامين هذه الرحلة:

(١) وصف الحكم التركي في الجزائر:

في حديثه عن الأتراك نجد المشرفي يعرض لأصلهم حين يقول: "دولة الأتراك المضادين لدين الإشراك، فالخبر عنهم وعن شعوبهم، فالحكم أنهم من الأمم القديمة، وهم من نسل تُرك بن كومر بن يافث، بن نوح عليه السلام".[٢٢] كما نقل إلينا بعض مشاهداته في وهران عنهم، فأشار إلى تعسفهم وظلمهم وجورهم حين قال: "إلا أنهم أبادهم الله من المغرب، لما طغوا وبغوا طغيان الجور والفساد، حيث عَتَوا عُتوًّا كبيرًا، وعاثوا في الأرض وأفسدوا، ومدّوا أيديهم بنهب الأموال، وسفك الدماء بغير حق، وهتك المحارم، وأحيوا ظلمهم القديم، ورجعوا لوصف آبائهم الذميم"،[٢٣] "ما أظنّهم إلا من تلك الفئة الطاغية، والشرذمة الباغية"،[٢٤] وفي المقابل نوّه بحبهم للعلماء، خاصةً علماء أسرة المشارف.

(٢) ثورة الدرقاويين والتيجانيين على عهد الأتراك:

ثم تكلّم صاحب الرحلة بشيء من التفصيل عن ثورة درقاوة، وما آلت إليه البلاد من تردّ في الأوضاع السياسية جرّاءها، مشيرًا إلى بعض من سبقه في الكلام عن هذه الثورة مثل الشيخ أبي راس. يقول المشرفي: "ففي حدود العشرين من قرننا هذا ثار عليهم "درقاوة" أهل النظافة في الدين والنقاوة، فأول ملك منهم هزموه" مصطفى باي" المكنىَّ بـ" أبي كابوس" بمجرد مقابلة سيد هذه الطائفة الآتي ذكره للباي المذكور وهو في شرذمة قليلة، انهزم وترك محاله مبنية في وادي "فرطاسة" في أرض الحشم، ولم يثن عنان فرسه إلى أن دخل وهران".[٢٥]

وقد تعرض بعد الحديث عن هذه الثورة، إلى انتقام الأتراك منهم، على أنه لم يطل الحديث فيها، حيث يقول: "فبعد تفرق الجموع والمواكب، استقرَّ المطاوع لشيخه بجبل الكواكب، ومدَّت الأتراك أيديهم في الرعية بالنهب وفعل الدنيَّة، وأهل النسبة عندهم هم الأعداء، ومن جهر بكلمة الشهادة يسفك دمه من غير قبول شفاعة فيه وإلا قد أعضل الداء، فلا فاجر عندهم أعظم ممن يعلن بالهيللة أو يوحد الله رافعًا صوته بالبسملة والحمدلة، إذ كل ذاكر عندهم درقاوي يبغضونه من بين غرباوي وشرقاوي، حتى حسموا لهذه الطائفة المادة، ولم تبق في ايالتهم ما تعده منهم العادة".[٢٦] لينتقل إلى الكلام عن ثورة التيجاني الذي اعتبره إحدى مظاهر عدم رضا الشعب الجزائري بالحكم التركي، يستشف ذلك من قوله: "وما كان مع ابن السيد أحمد التيجاني دفين فاس المحروسة، فقد ثار عليهم ابنه السيد محمد وجاءهم في نفير من رماة الصحراء، وساعدته قبائل الحشم ومن جاورهم وأعلنوا له بالنصر".[٢٧]

(٣) الحديث عن مدينة الجزائر:

ثم تكلم الرحالة المشرفي عن مدينة الجزائر وتاريخ بنائها إذ يقول: "وكانت الجزائر هي أم مدائن الواسطة وقاعدة ملكهم معدة لحرب العدو، وأبراجها من جهة البحر محصنة بطبقات المدافع كأنها شعلة نار، أسفل الطبقات تضرب على وجه البحر، وأعلاها

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

تضرب ما طال من صاري السفينة".[٢٨] وتحدث عن وليها عبد الرحمن الثعاليبي،[٢٩] وتلميذه أحمد بن عبد الله،[٣٠] ثم عرّج على ذكر دخول الفرنسيين إليها.[٣١]

(٤) مقاومة الأمير عبد القادر:

كما أشار المشرفي من خلال هذه الرحلة إلى مقاومة الأمير عبد القادر.[٣٢] وفي حديثه عنها، نجد موقفه من الأمير عبد القادر ينقلب رأسًا على عقب مما ورد في "طرس الأخبار". فقد أشاد كثيرًا به وبأعماله، ليعدل عن موقفه العدائي منه، والنص التالي يعبر بصدق عن ذلك: "ولما كانت نية الحاج عبد القادر خالصة في دينه، وملّة نبيه صلى الله عليه وسلم، لم يعاقبه الله في الدنيا، فكانت معيشته ومعيشة أهله، على يد عدوّه وصديقه، وأسكنه الله الأرض المقدسة، فصار يمشي بأرض تردد فيها جبريله على كل نبي ورسول، فيالها من مشية بين قبور الأنبياء، وأهل الصلاح والأولياء، بعد أن جرّد سيفه على الأعداء، وناضلهم مناضلة الصحابة والأشدّاء... سل عن تردده في الميدان بيجو وأحبار الرهبان، وسل عن تردده في الصفوف أودية سيك وشعاب خروف... فبسبب سنة الجهاد التي أحياها في آخر الزمان، أحيا الله ذكره، وبتقديم والده المذكور، وحاز حمد الله وشكره".[٣٣]

(٥) ثورة أولاد سيدي الشيخ:[٣٤]

وفي حديثه عن هذه الثورة نجده يقول: "فاقتحموا المشاق والمهالك، وثاروا ثورة المجنون، وقالوا إنَّا لنا أجرًا غير ممنون. تأمَّر الكبير منهم سنون وأعوامًا، وقتل بوالده جيوشًا نصرانية وأرواما، ومات قرير العين بأخذ الثأر، وخلفه أخوه وما قال العثار، وشنَّ على عدوه الغارات، وقتل من في الحصن وداخل المغارات، إلى أن مات ساكن الفؤاد، حيث قتل في والده الرؤساء والقواد وأمراء الجيوش والأجناد، وخلفهما الأخ الثالث فأقسم بالسبع المثاني ورب المثالث، ليأخذنَّ بثأر الأخوين والوالد، ويحي تلك المشاهد، وما اندرس من تلك المعاهد".

ويواصل المشرفي قائلاً: "ولما رأى الفرنسيس الفتنة حول ساحته تحوم، وخيلها تمرج في تلك السحاري والتخوم، واستوطن الفتانون له كورة سجلماسة خاطب سلطان المغرب ذا الرأي والحماسة أبو علي مولانا الحسن بن مولانا أمير المؤمنين محمد ليكف عنه الفتان الذي هو في بلاده وبين رعيته يتردد". وانتقل المشرفي بعد الحديث عن ثورتي الأمير عبد القادر وأولاد سيدي الشيخ للحديث عن الإفرنج، وبعضًا من تاريخهم وأعمالهم في الجزائر، كإنشاء المدن وتوسيعها، وبناء الموانئ، وإنشاء الطرقات، واستصلاح الأراضي، وإنجازاتهم في قطاع التعليم.[٣٥]

(٦) الحديث عن العلماء والقضاة:

كما نجده في السياق ذاته، ينوّه ببعض علماء الجزائر ويقدم تراجم وافية لبعضهم، فقد ترجم لكل من الحسن بريهمات،[٣٦] وأحمد قدورة،[٣٧] وعلي العمالي،[٣٨] ووالده أحميدة العمالي،[٣٩] وحمودة القاضي،[٤٠] وجملة أخرى من العلماء، خاصةً منهم علماء الأسرة المشرفية، وعلماء مستغانم وتلمسان.[٤١] ثم أفرد للقضاء فصلاً مستقلاً، وتكلم عن فضله وخطورة تقلده، حيث عدّه من أعظم الخطط الدينية الست دون الخلافة، أكمل قدرًا عند الله تعالى،[٤٢] حيث يقول: "فاعلم أن أعظم الخطط الست دون الخلافة القضاء، وأكملها عند الله قدرًا، فإلى القاضي المرجع في الجليل والحقير، ويختص بالنظر في الجراحات والتدميات".[٤٣]

ويؤكد المشرفي، على ضرورة حسن اختيار أعوان القضاء وتحديد أوصافهم، وضرورة رجوع القاضي للعلماء، باستشارتهم فيما يستجدّ من النوازل، إذ يقول: "وللقاضي، أن يتفطّن أيضًا لأعوانه، ولا يرشّح لإعانته إلا العون الخيّر، بحيث يكون كالشاهد حرًا ذكرًا غير مغفّل، لا يخدع ولا يقدح في عدالته، لأنه ترجمان القاضي وأمين سرّه ونهيه وأمره... ومن سنة القاضي أن لا يستغني عن مشورة العلماء في كل نازلة نزلت، بل يستعين بهم في جليل الأمر وحقيره، ومن أعرض عن مشورتهم عميت عليه إفتاء الوجه الشرعي، وانطمست آثاره".[٤٤] كما نجده يوصي "من ابتلي بالقضاء، والحكم بين العباد، أن يكون عاقلاً، عفيفًا، مرضيًا، يغلب خيره على شرّه، فإن الحكم مبني على ميزان الاعتدال، فمتى رجح أو مال، تلفت به نفس ومال".[٤٥] وقد أنهى المشرفي هذا الباب بخاتمة مطوّلة، تحدث فيها عن مدن المغرب الأوسط ومدينة أم العساكر.

(٧) مدينة أم العساكر:[٤٦]

ذكرها المشرفي قائلاً: "ومن مدن المغرب الأوسط أم العساكر وبها سرير الملك ولا ينتقل الملك منها إلى وهران إلا إذا اشتد الحر على عساكره يذهب بها إلى ساحل البحر إلى أن يعتدل الهواء فيرجع إليها. وهي مدينة عامرة الديار، واسعة الأقطار، اشتملت على مدينة عرقوب إسماعيل وبابا علي والباب الشرقي والعين البيضاء، وسيدي علي بن محمد، والكل محدقون بالقصبة التي هي دار المخزن ومحل ديوانه وأحكامه. قد استدارها من جميع جهاتها ونواحيها بساتين التين وكرم العنب، وتينها أحسن التين لونا وأكبرها حجمًا وأنعمه شحمًا وأحلاه طعمًا، حتى يقال: "أنه ليس في الدنيا مدينة يوجد فيها هذا التين". ومنها يحمل التين والزبيب إلى سائر الأقاليم، من عدم تسويسه ويدخر لشدة السنين وتطول مدته، يجعلونه أعدالاً ويسافرون به برًا وبحرًا ولا يتغير لونه ولا طعمه لامتزاجه في ظرفه فلا يتوصل لقسمه وقت المناولة إلا بآلة الحديد".

ويضيف المشرفي في وصف هذه المدينة قائلاً: "وهواء هذه المدينة طيب لا وخم فيه، قليلة العلل كثيرة الغلل، لا تجتمع بها السفل، تنفر الفجار وتقبل على التجار، لا تكسد السلع في أسواقها ولا تبور المنفقين في أرزاقها، للغريب عرين ولأهلها نعم المتبوأ والقرين، اختطها حكيم الدولة بجبل الذهب، وبناها للدين مأوى وحفظًا لما ينتهب، يجبى إليها من الراشدية كل خير، ويذب عنها أهل غريس إساءة الغير، ويكفون عنها الأيادي العادية، فلا تعدو على أحوازها عادية، واستغنوا عن الحاجة، بمزارع عواجة، وبطحاء غريس أغنت الفرنج اليوم عن باريس، فحصَّن أسوارها، وتحف

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أدوارها وأطوارها، فخمَّر عنها، وخندريس تينها وعنابها، لا يوجد في قطر من الأقطار، ولا يستعمل في مصر من الأمصار، توزن بالصرف، وتزلزل العقول إذا شربت حال الصرف".

(٨) أقاليم المغرب الأوسط:

ذكر الرحالة المشرفي أن المغرب الأوسط اشتمل على مدائن عظيمة وأقاليم جسيمة وهي:

١/٨- إقليم معسكر:[٤٧]

فمن الأقاليم التي عُرّف بها المشرفي هذا الإقليم ذكره قائلاً: "فإقليم معسكر المذكور، فيه ثغور بحرية معدّة للأسطولات كمستغانيم ووهران، ومدائن برية كقلعة راشد ومدينة اتيلوانت ومدينة البرج التي لا يوجد عنها إلا في النيروز، وإبان الحرث وقت فَقْدِ سائر الثمر، والحبة منه تملأ الفم ولونه داكن يميل على السواد وجله أحمر قاني". ويضيف قائلاً بعد ذكره جبل العمور: "وجبل العمور هذا من إقليم المعسكر وسائر قرى التل والصحراء، فتاقدمت التي أحياها الأمير عبد القادر بن محي الدين كانت لعبد القوي وقد ذكر "المغيلي" سطوته وقوة جنوده، بينها وبين المعسكر مسافة القصر أربعة برود فأكثر. وقصور الصحراء: قصر بوعلام، والخضرا، وتاويلا، والغاسول، وابرينة، والأبيض، والشلالتين القبلية والظهرانية، وأبو سمغون، والعين الصفرا. وينتهي إقليم المعسكر إلى فجيج الذي هو محسوب من إقليم المغرب الأقصى.

كما تكلم المشرفي عن المدن التي أحدثها الفرنسيون بهذا الإقليم قائلاً:[٤٨] "وأحدث الإفرنج مدائن عظيمة حوالي المعسكر من سائر الجهات، فقد أحدث بوادي سيك بالكاف المعقودة، وبوادي هبرة مدائن، وزوَّل السدر الهائل شوكُه والرتم والأثل والقطف بالقاف المعقودة، وغرس الأشجار ذات الثمار في موضع التي لا تثمر، وردَّها جزيرة خضراء حبة الإجاص فيها أو التفاح تزن الرطل أو ما يقرب منه، وعنقود العنب من طازج ثمرته يشبع الاثنين والثلاثة إذا لم يكن فيهم شره ونهمة". ويضيف قائلاً: "كما أحدث بوادي مينة مدائن وحضَّرها للتجار، تعمر أسواقها من سائر الأقطار، وسائر البناءات على ضفة وادي شلف إلى الأصنام، مدينة عظيمة لم تكن في زمن الإسلام، واتخذَّ لها جسرًا عظيمًا يقرب من نصف الميل، بناه أولاً بالألواح، ثم بناه بعد ذلك بالحجر المنجور بناءً وثيقًا".

كما تكلم صاحب الرحلة عما آل إليه أمر هذه المدينة زمن الأمير عبد القادر، ثم بعد استيلاء الفرنسيين عليها، حين يقول: "وفي زمن الحاج عبد القادر بن محي الدين جمعت أعشار قبائل بني "بوخنوس" على يد رئيسهم القائد أحمد بن الزيتوني، وجعلتها في سرب واحد وما ناصفته. وبعد استيلاء الإفرنج أحياها واتخذها محكمة لقبائل البربر الذين هم في سفح جبل ونشريس ومنهم العلاَّمة الونشريسي صاحب المعيار، ولمقابلتهم في عدوة أولاد القصير ومدائن مجاجة وأولاد فارس وأحميس إلى ثغر أتنس".

٢/٨- إقليم مليانة والمدية:[٤٩]

قدم لنا صاحب الرحلة معلومات مهمة عن هذا الإقليم، فنجده يذكر أن: "من أقاليم المغرب الأوسط أيضًا إقليم مليانة والمدية، امتد من ثغر شرشال إلى أعراب تيطري وسر يمينا من جبل بني امناصر إلى جبال أبراز وجبال أهروات في عدوة وادي شلف الأخرى إلى مدينة "طازي" التي أحياها الأمير عبد القادر بن محي الدين، إلى جبل البخار إلى جبل بوسعادة إلى قبائل أولاد مقران إلى جبال أزواوه المحتوية على ألوف من القرى والمداشر".

٣/٨- إقليم الزاب:[٥٠]

ومن الأقاليم التي عُرّف بها المشرفي وقدما لنا وصفًا دقيقًا عنها إقليم الزاب، الذي يقول عنه: "ومن أقاليم المغرب الأوسط إقليم الزاب المحتوي على مدائن وقرى، قاعدته بسكرة ومسيلة وقسمطينة، وثغوره عنابة وبجاية، وامتد هذا الإقليم إلى خط الجريد، تجيء إليه من نفطة وتوزر وسوف ثمرات النخيل، وعجوته الفائقة على تمره دقلة النور أحلى من السكر وشهد العسل، إلاَّ أنَّ الذي سقطت أسنانه لا يقدر على مضغها إلا إذا دقت وسفَّ دقيقها يجد حلاوتها ونفعها، وينتهي هذا الإقليم يمينا إلى قرى امزاب وعين ماضي والأغواط الشرقي لجبل العمور".

خاتِمَةٌ

وعمومًا؛ فإن هذه الرحلة تعتبر من الرحلات الفريدة من نوعها فيما يتعلق بتاريخ الجزائر خلال القرن التاسع عشر، خاصةً إذا وضعنا في الحسبان أن الوصف الذي قدّمه المشرفي عن الجزائر هو وصف لا نكاد نجد له مثيلاً في الكثير من المؤلفات الجزائرية في هذه الفترة عدا التقارير الفرنسية. ولقد اعتمد فيها صاحبها على السرد التاريخي وغاب عنها التبويب، كما أنها تتميز على العموم بأسلوب سلس ولغة سليمة، عدا ما تخللها من ألفاظ دارجة وعامية، لكنها كانت نادرًا ما تتكرر، إضافةً إلى أسلوبها الذي يغلب عليه استعمال المحسنات البديعية كالسجع والجناس، وهي السمة الغالبة على مؤلفات هذه الفترة. ويلاحظ كذلك على المؤلِّف براعته في الأدب، وهو ما جعل رحلته هذه ثرية بالمعلومات والاستطرادات التاريخية المهمة.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهَوامِشُ:

(١) عن تفاصيل أكثر عن هذه الشخصية راجع كتابنا: **العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي ت١٨٩٥ حياته وآثاره**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط١، ٢٠١١.

(٢) عبد القادر بن سودة، **إتحاف المطالع بوفيات القرنين الثالث والرابع**، ضمن **موسوعة أعلام المغرب**، ج٨، تنسيق وتحقيق محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص: ٢٨٠٥.

(٣) عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، ط٣، ١٩٨٣، ص: ٣٠٣.

(٤) ابن سودة، **إتحاف المطالع**، ص: ٢٨٠٥.

(5) Henri Pérès: ***l'Algérie vue par deux voyageurs musulmans en 1877-1878***, R.A, N76, 1935, p: 261.

(٦) العربي المشرفي، **ديوان نظم في من أيقظ للدين جفن الوسن مولانا الحسن**، مخطوط في الخزانة الملكية في الرباط تحت رقم: ٥٣١٠، و١١١ظ.

(٧) العربي المشرفي، **ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول**، مخطوط في المكتبة الوطنية المغربية تحت رقم: ٢٩٥٦، الرباط، ص٩.

(8) Henri Pérès: op. cit. p: 261.

(٩) العربي المشرفي، **ديوان المشرفي**، و١١١ظ.

(١٠) العربي المشرفي، **الذخيرة**، ص: ٥٦.

(١١) محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، ج٢، الفترة المعاصرة ١٧٣٠ – ١٩٣٠، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة الدراسات البيبليوغرافية رقم ٠١، ١٩٨٩م، ص: ٩١.

(١٢) وهو ابن عمّه، تولى قضاء الحياينة، وكان أحد العدلين اللذين ذيّلا بختمهما على وثيقة المهاجرين بفاس سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٤م، تجديدًا لبيعتهم للسلطان الحسن الأول، أمام إغراءات الفرنسيين لهم بالحصول على الحماية والدخول تحت سلطة الاحتلال الفرنسي في الجزائر. يُنظر: محمد المنوني: "**وثيقة عن المهاجرين التلمسانيين في فاس**"، دعوة الحق، ع٢، تصدر عن وزارة الأوقاف المغربية، السنة العاشرة، ديسمبر ١٩٦٦، ص ص: ١٠٤ – ١٠٦.

(١٣) عالم محدث وقاضي. ولد بالجزائر، وبها أخذ العلم، ثم تولى القضاء وهو ابن الخامسة والعشرين (٢٥) من العمر في مليانة، ثم في تنس وأخيرا بتلمسان. من آثاره: ربح التجارة ومغنم السعادة فيما يتعلق بأحكام الزيارة. توفي مع بداية القرن العشرين ولم يخلّف بعده القطر الجزائري مثله في ثلوج الصدر، والهمة البعيدة في جمع الكتب ونسخها، والبذل والمعروف. وقد أجازه العربي المشرفي سنة ١٨٧٨م. يُنظر: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٧، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٨، ص: ٧٢.

(١٤) عبد السلام بن سودة بن عبد القادر، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٩٧م، ص: ١٠٠.

(١٥) المصدر نفسه، ص: ١٠٠.

(١٦) المصدر نفسه، ص: ١٠٠.

(١٧) أبو القاسم سعد الله، "**مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر**"، الثقافة، تصدر عن وزارة الثقافة الجزائرية، عدد (٧٥)، سنة ١٣، ١٩٨٣م، ص: ٨١.

(١٨) محمد المنوني، المصدر السابق، ج٢، ص: ٩١.

(١٩) المصدر نفسه، ص: ٩١.

(٢٠) العربي المشرفي، **الذخيرة**، ص: ٣.

(٢١) سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٧، ص: ٤٠٤.

(٢٢) العربي المشرفي، **الذخيرة**، ص: ٤.

(٢٣) المصدر نفسه، ص: ٦.

(٢٤) المصدر نفسه، ص: ٧.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ص: ٤- ٩.

(٢٦) المصدر نفسه، ص: ٩.

(٢٧) المصدر نفسه، ص: ١١.

(٢٨) المصدر نفسه، ص:١٢.

(٢٩) **عبد الرحمن الثعاليبي**: هو الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد، الشهير بالثعاليبي، مفسّر، محدّث، فقيه، وصوفي من كبار علماء الجزائر. ولد سنة ٧٨٦هـ شرقي مدينة الجزائر، وسافر إلى بجاية وتونس والقاهرة طلبا للعلم. ولي قضاء الجزائر ثم عزل نفسه. من آثاره: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، والعلوم الفاخرة في أحوال الآخرة. توفي سنة ٨٧٥هـ بالجزائر. ينظر: السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، بيروت: منشورات مكتبة دار الحياة، مج٢، ج٤، ص: ١٥٢.

(٣٠) **أحمد بن عبد الله**: الزواوي الملوي المغربي المالكي، نزيل الجزائر، فقيه متكلم صوفي، صاحب القصيدة المشهورة في التوحيد الموسومة بالمنظومة الجزائرية، التي كان الشيخ السنوسي أحد شرّاحها. اشتهر بزاويته التي صارت مدفنًا لجملة من علماء الجزائر. توفي سنة ٨٨٤هـ يُنظر: السخاوي، المصدر السابق، مج١، ج١، ص: ٣٧٤.

(٣١) العربي المشرفي، **الذخيرة**، ص ص: ١٩ – ٢١.

(٣٢) المصدر نفسه، ص: ٣٩ - ٤٥.

(٣٣) المصدر نفسه، ص: ٢٠.

(٣٤) المصدر نفسه، ص: ٤٦- ٤٨.

(٣٥) المصدر نفسه، ص: ٢٤– ٢٧.

(٣٦) **الحسن بريهمات**: فقيه عالم مشارك، برع في العلوم الدينية واللغة العربية. ولد حوالي سنة ١٨٢١م. ويعدّ من أوائل الجزائريين الذين دخلوا المدرسة العربية الفرنسية المنشأة سنة ١٨٣٦م. تولى قضاء البليدة سنة ١٨٥٣، وإدارة مدرسة الجزائر الشرعية سنة ١٨٥٥م، ثم عين عضوا في المجلس الفقهي. توفي سنة ١٨٣٣م. يُنظر: الحفناوي أبو القاسم محمد بن إبراهيم، **تعريف الخلف برجال السلف**، تحقيق وتقديم محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، بيروت: مؤسسة الرسالة، تونس: المكتبة العتيقة، ط١، ١٩٨٢م، ج٢، ص: ١٢٠.

(٣٧) **أحمد قدورة**: من علماء الجزائر وفقهائها، تولى الإفتاء بعد وفاة أخيه محمد سنة ١١٠٧هـ وقد توفي مقتولاً سنة ١١١٨هـ/ ١٧٠٦م بأمر من الباي محمد بكداش. ويبدو أنه لم يكن في درجة أبيه سعيد ولا أخيه محمد العلمية، ولعله كان كبير السن عند وفاته. يُنظر: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج١، ص: ٣٥٦.

(٣٨) **علي العمالي**: بن أحمد بن محمد أبو الحسن، فقيه مشارك من كبار علماء الجزائر في العهد الاستعماري قرأ على والده احميدة العمالي. ولد سنة ١٨٤٨م، وتوفي سنة ١٩٠٦م، حيث كانت جنازته مهيبة حضرها أهل العلم ورجال الفضل وأعيان الجزائر. يُنظر: الحفناوي، المصدر السابق، ج٢، ص: ٥٤٦ – ٥٤٨.

(٣٩) **أحميدة العمالي**: فقيه محدث، ولد سنة ١٨١٢م، تولى إفتاء مدينة الجزائر سنة ١٨٥٦م. توفي سنة ١٨٧٣م، ودفن بروضة الإمام الثعاليبي. من آثاره رسالة في أحكام المياه، رسالة في ترتيب القضاء. يُنظر: الحفناوي، المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٤.

(٤٠) **حمودة القاضي**: الفقيه الوجيه، العلاّمة النبيه، السيد حمودة القاضي، عالم بفروع المذهب المالكي، ومداركه. قدّمه الولاة من بين العلماء لأهليته بصناعة القضاء، وسياسته الدينية والدنيوية، وذكائه وفطانته. يُنظر: العربي المشرفي، **الذخيرة**، ص: ٣٣.

(٤١) المصدر نفسه، ص: ٢٣– ٣٤ ، ص: ٣٨– ٤٩.

(٤٢) المصدر نفسه، ص: ٣٣–٣٦.

(٤٣) المصدر نفسه، ص: ٢٩.

(٤٤) المصدر نفسه، ص: ٣٢- ٣٣.

(٤٥) المصدر نفسه، ص: ٣٤.

(٤٦) المصدر نفسه، ص: ٢٥.

(٤٧) المصدر نفسه، ص: ٢٥

(٤٨) المصدر نفسه، ص، ٢٥.

(٤٩) المصدر نفسه، ص: ٢٥.

(٥٠) المصدر نفسه، ص: ٢٥.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449